مشهد الحيوان في القصيدة الجاهليّة

د. حسين جمعة

مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية يحمل الصنعة الجاهلية بفطرة هادئة تقابل الواقع بداهة دون أن يجعل الشاعر لذلك تفسيراً الا ما توحيه مشاهدة الطبيعة الحية ، ولهذا آثر التحدث عن ذلك بصور شعرية دون الولوج في بيان قيمتها الدلالية ، ولكن بعض الشعراء ركب أجزاء صورته الشعرية على نحو غريب ربما كان أقرب الى الخرافة وان كانت أجزاؤها تلك مستمدة من واقع القوم كالغول (١) والعنقاء(٢) ٠

ومن هنا يتميز مشهد الحيوان من شاعر الى آخر باختلاف تجارب الشعراء ومواقفهم النفسية والفكرية ٠ وهذا كله أضاف الى مشاهد الحيوان ملامح جديدة فوق ما هي عليه في الأصل القائم على حياة البداوة ٠ وتبقى الطبيعة الحية مادة أصيلة في حياة العرب وقيمهم على اختلاف مواضعهم ، وهي في الوقت نفسه نسيج في عاداتهم ومعتقداتهم ٠

ومن أراد استيضاح ما تقدم كان لا بد له من أن يتخيل صفات الحيوان قبل أن يستنطق القصيدة الجاهلية ذاتها ، وما يقال في هذه يقال في تلك ، **فمشاهد الحيوان تضع المرء أمام أسٍ أولي للضمير الانساني** ، وتجاه أخلاق فُطر عليها أصحابها ٠ وهي طبع أصّله الذوق السليم وحياتهم الساذجة الخالية من كل غش وتعقيد ٠

وذلك كله يقود الى التعلق بأهداب مشهد الحيوان وأفانين التصوير فيه ، وكلها قادرة على الايحاء بكل ما تأملته عيون الشعراء، ووعته عقولهم ، وأبدعته قريحتهم ٠ فمشهد الحيوان أسلوب تعبيري يحاكي الواقع ومفاهيم أبنائه في شكل ينبض بالحياة ، وبشعور رقيق وفطري ٠ وبالتالي فهو يؤصل كثيراً من العادات والمعتقدات التي جرى عليها الجاهليون ، ودلالاتها لا تتضح بغير صورة الحيوان ، ولا أدل على هذا من اختيار صورة

الأفعى الرقطاء والدقيقة الحجم التي تساورأحدهم بسمها القاتل حتى يبقى ليله مسهّداً وقد وضعت خلا في يديه لئلا يغفو فيسري السم في جسده • وعلى الرغم من أنهم اختاروا لفظ السليم لذلك الملدوغ تيمناً بسلامته الاأن الرقاة الذين تعاوروا عليها وعليه واحداً بعد آخر لم يستطيعوا فعل شيء ، وأخذ كل واحد ينذر الآخر بشدة نكارتها ، كما يفسره قول النابغة(٣) :

فبت كأني ساورتني ضئيلة ... من الرقش في أنيابها السم ناقع

يسهّد من ليل التمام سليمها ... لحلي النساء في يديه قعاقع

تناذرها الراقون من سوء سمها ... تطلّقه طوراً وطوراً تراجع

فحالة النابغة الذبياني وقد تزاحمت عليه الهموم وداخلته المخاوف من تهديد النعمان له ما كانت لتبرز في هذا الشكل المؤثر لولا صورة الأفعى الرقشاء ، فقد بات كالملدوغ الذي يعاني الآلام في أطول ليالي الشتاء •

وهذا يؤكد أن مشهد الحيوان صدى للواقع وحالة شعورية ونفسية ، وصورة من مرحلة تاريخية لا يمكن اغفال معطياته • ومن هنا لم يكن مشهد الحيوان مسخراً لهدف انساني فحسب ، وانما كان من الأسباب التي تؤلف بين أجزاء القصيدة منهجاً وفكراً • فأي مشهد من مشاهد الحيوان كان مفعماً بالأشكال الفنية التي أرست قيماً لا تحصى ، وقد يعود هذا الى تشابه المصادر في حياة البداوة • وكانت هذه الأشكال تمثل نضجاً فكرياً مثلما تبرز تقدماً فنياً تسجل لأبناء العصر الجاهلي وهم ينتقلون من الملموس الى المجرد غالباً ، ولا سيما حين جعلوا صورة الحيوان وسيلتهم الى ذلك • فتداخلت العزة والاباء والشجاعة والجرأة والغدر والخيانة والروغان والختل •••• الخ بصور من حيوانات باديتهم • فغضبة الجاهلي لا تكون الا بعد صبر وتدبر ، وهي ليست منفصلة عما يراه في الطبيعة • ولهذا اتخذت صورة الليث مثلا للقدرة والسطوة والشجاعة(٤) لأنه يأنف من التبعية للآخرين ، ويترفع عن مهاجمة فريسته غدراً ، على حين أنه كره طباع الذئب ، وانتقل هذا المفهوم الى صورة من يشبهه في سلوكه ، فالذئب اقترن بالظلم والغدر والفجور(٥) ولم يمنعه حذره ولا كنيته الحسنة (أبو جعدة)(٦) من ذلك ، بينما بقي الثعلب مثلا للروغان والختل(٧) •

وأيّاً ما تكن المشاهد فهي تدل دلالة قاطعة على الاتصال الفريد للجاهلي بواقعه ومعطياته ، وبهذا أخلصت لزمانها وكانت قادرة على كشف أبعاده • فصورة القطا مثلا ارتبطت بالفلاة أو المفاوز ولهذا غدا القطا مرشداً ودليلا الى موارد الماء فيها ، ورمزاً للتفاؤل حين تنقطع السبل بمن ضل في القفار بعد أن ساورته المخاوف ، وأيقن بالتهلكة • وبهذا يمثل القطا روح التمسك بالحياة في قلب البادية الرعناء ، ومن أمثلة ذلك قول النابغة الذبياني(٨) :

تدعو القطا بقصير الخطم ليس له ... أمام منخرها ريش ولا زغب

حـذّاء مـدبرة سـكّاء مقبـلة للماء في النحر منهـا نوطـة عجب
تدعو القطا وبه تدعى اذا انتسبت يا صدقها حين تلقـاهـا فتنتسب

ولا تستطيع كلمات قليلة أن تحيط بمشاهد الحيوان كلها على تعـدد الابداع فيهـا ، فمشهد الذباب عند عنترة يظل فريداً في بابه حتى صار من التشبيهات العقـم(٩) ، وراحلة الشعراء التي كانت صورة من واقعهم مثّلت وحدة فنية واتساقاً لموضوعاتهم التي عالجوها في قصائدهم(١٠) • ولم يكـن مشهد الخيـل المشبع بالنضج الفني والفكري بأقل من ذلك ، وهو ما نخصه بالذكر في الصفحات القادمة • ففي هذا المشهد كان كثير من الشعراء معلمة في الحذو حينما تحدثوا عن الخيل فامرؤ القيس الذي حذا حذو أستاذه أبي دؤاد وفاقـه يقف على رأس من تعقب صفات الخيل(١١) وكأنه نسيج وحده • ولعـل قيم الفروسـية التي أرساها هو وأضـرابه تبقى على مر الزمـن دلالة على حب العرب للخيل وفخرهم باقتنائها حتى غدت لديهم مظهر عزة وفخار ، بل هي مظهر مروءة وأصالة • ولهذا اشتبكت صورتها بملامح انسانية راقية مثلما تداخلت هيئتهـا بصورة الخيمـة العربيـة التي يحتمي بهـا العربي ، ومن أمثلة ذلك قول طفيل الغنـوي(١٢) :

وبيت تهب الريـح في حجـراتـه بأرض فضـاء بابـه لـم يحجّب
سماوتـه أسـمال بـرد محبـر وصهوتـه من أتْحَمـيٍّ معصـب
وأطنـابـه أرسان جـرد كأنهـا صـدور القنا مـن بادىءٍ ومعقب

وهذا المشهد واحد من جملة(١٣) مشاهد تنبىء بالمعطيات الاجتماعية والفكرية وتغدو شكلا نابضاً بالصلابة والوقار فوق ما تضطلع به من أصول فنيـة • فالخيـل أشبه بمثـال جمالي وفني ، ولهذا لم يتوان طفيل لحظـة واحدة في اختيار ما أدى الى التطابق الذاتي بين رغباته وواقعه ، وما تعارف المجتمع عليه • فالموقف النفسي والفكري عنـد طفيل حـدد صورة المنفعة من الخيل في الوقت الذي ظهرت فيه صورة للكرامة وهي تحمي أهلها • وهـذا يجعل الخيل صورة للمتعة والزينة(١٤) فـوق ما تحمله من شدة المبالغة في الحفاظ عليهـا لأنها صورة للعزة • فالجاهلـي فضل فرسه على نفسـه وعياله لأنـه حصنـه اذا عَزّت الحصون ، وقرينه اذا جدت الخيل ودلفت الى المعارك ، ولا نظير له بين أترابه • وفي هـذا الباب تكفي اشارة واحدة الى مشهد الخيل في شعـر حاجب الأسدي ، لينهض دليلا علـى ما تقدم • فزوج حاجب تدفعه لبيع فرسه ثادق وتغريه بارتفاع أثمان الخيل ، ولكن فرسه وحده قادر على اغاثتهم من ضائقة السنوات العجاف • ولذلك يحرص حاجب على انكـار ما يسمع ويصر على التمسك بفرسه فيخاطبها قائلا(١٥) :

بـاتت تلـوم علـى ثـادق ليُشـرى فقـد جـدّ عصيانها
ألا إن نجـواك في ثـادق سـواءٌ علـيّ واعـلانهـا
وقـالـت : أغثنـا بـه إننـي أرى الخيـل قـد ثـاب أثمانهـا

فقلت : ألم تعلمي أنه كريم المكبّة مِبدانها
تراه على الخيل ذا جرأة اذا ما تقطع أقرانها
وقلت : ألم تعلمي أنه جميل الطلالة حُسانها

فهذا الحوار الطريف حول سياسة المال بين الأزواج ، وعظم المأساة التي تحملها قسوة السنوات لا يتضح الا من خلال مشهد الخيل • فحاجب صم أذنيه عن رغبة زوجه على شدة حاجتها للطعام ، وطفق يعلل لها تمسكه بشادق ، فهو كريم في المعارك ؛ جميل الطلعة يعجب الناظرين ، وهو يفوق عتاق الخيل • فالحاجب الأسدي يجيبها اجابة الحكيم حين تغافلت عن قيمته عنده ، وعما يمثله له • وليس هناك أنكى من أن يتخلى الجاهلي عن فرسه مهما تعوزه الحاجة وتشتد به الفاقة •

وهذا التلوين الفني الذي يطفح بأخيلة مثيرة ذات معطيات انسانية يماثل ما توحيه مشاهد الحيوان الأخرى في القصيدة الجاهلية •

فمشاهد الطبيعة الحية كالحمر(١٦) الوحشية والبقر الوحشي وغيرها أخلصت فنها لمعطيات عصرها وفق أسلوب آسر من جزالة العبارة ، وشيوع القوالب البدوية التي ظلت الشاهد على اختلاف أنواع الطبيعة الحية ، وقدرة الشعراء على انتزاع الصور منها • فحسن الصنيع يفضح قبح التصنيع مهما تجنح المشاهد الى التعقيد اللفظي أو التضمين(١٧) •

وهذا يثير في مشهد الحيوان مسألة من نوع آخر ، ويضعه في صميم مشكلة ملخصها أن البادية خلعت ثوب الخشونة والغرابة على أغلب مشاهد الحيوان ، فألفاظها(١٨) غريبة الوقع على الأسماع ، وغامضة غير مُحصَّلة ، وهي تكره المرء على الاستعانة أبداً بالمعجمات •

واذا كان المرء يحس بطغيان ذلك في مشاهد دون أخرى كمشاهد الناقة مثلا فانه يرى في البعد الزماني ، وقلة الدراية بما كان يهتم به الجاهليون سبباً لما وقع في هذه المسألة • فالجاهليون عاينوا الحيوان الأليف والوحشي، وتفهموا ما أظهرته حياة البراري وضواريها ونقلوا ذلك بصدق وأمانة ، فكانوا أكثر اخلاصاً لواقعهم وحياتهم ممن يتغافل عن واقعه • وغرابة الألفاظ ما كانت(١٩) لتستغلق على ذوي الأفهام لأن مشهد الحيوان يفيد كثيراً من المبادىء الفنية التي قامت عليها القصيدة الجاهلية عامة ، وتركزت فيه خاصة • ولعل أشهر تلك المبادىء مبدأ العناية بالجزئيات ، واستعمال المثل والتكرار وتداخل الأنواع الفنية • وقد اتكأ مشهد الحيوان على ذلك مستفيداً من صفة الاستطراد والايغال في المقارنات •

وبهذا كله اتخذت مشاهد الحيوان سبيلها الى كشف معطياتها مهما يكن غموض الألفاظ في بعضها ، وكان ذلك قادراً على الوصول الى ما استكنّه الشاعر من حقائق ومعان •

هكذا يظهر مشهد الحيوان فناً تعبيرياً غنياً بالتلوين والتنوع ، ومادة من حياة التبدي التي قامت على ظاهـرة الارتحـال وطلب النُجعة ، وهي تتشبع بقيـم أصيلـة لا ينفك الجاهلي من اسارها ، اذ آمن بها وتعارف مع ذويه وأقربائه عليها ٠

□ الحواشـي :

١ ـ انظر مثلا : تابط شراً ، ديوان تابط شرا (بيروت ـ دار الغرب الاسلامي ـ جمع وتحقيق علي ذو الفقار شاكر) ص ١٦٤ ـ ١٦٦ و ٢٢٤ ـ ٢٢٧ ٠

٢ ـ انظر ابن منظور : لسان العرب (بيروت ـ دار صادر) مادة (عنق) ج ١٠ ـ ص ٢٧٦ ٠

٣ ـ النابغة : ديوان النابغة الذبياني (القاهرة ـ دار المعارف ـ تحقيق أبو الفضل ابراهيم) ص ٣٣ ـ ٣٤ ٠

٤ ـ عبيد : ديوان عبيد بن الأبرص (بيروت ـ دار صادر ـ تحقيق كرم البستاني) ص ٨٠ و ٩٠ و ٤٩ ٠

٥ ـ أوس : ديوان أوس بن حجر (بيروت ـ دار صادر ـ تحقيق د٠ نجم) ص ٧٥ و ١١٥ ٠

٦ ـ المصدر الأسبق ص ١١ ٠

٧ ـ طرفة : ديوان طرفة بن العبد (دمشق ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية ـ تحقيق درية الخطيب ـ ولطفي الصقال) ص ١١٨ ٠

٨ ـ النابغة : ديوان النابغة الذبياني ص ١٧٧ ٠

٩ ـ عنترة : ديوان عنترة (دمشـق ـ المكتب الاسلامـي ـ تحقيق ـ مولوي) ص ١٩٧ ـ ١٩٨ ٠

١٠ ـ انظر الرافعي : تاريخ آداب العرب (بيروت ـ دار الكتاب العربي) ج ٣ ص ١٢١ ، والقيسي : وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية (العراق ـ الموصل ـ مطبعة مؤسسة دار الكتب بجامعة الموصل) ص ٢٩ ٠

١١ ـ امرؤ القيس : ديوان امرىء القيس (القاهرة ـ دار المعـارف ـ تحقيق أبو الفضـل ابراهيـم) انظر مثـلا : ص ١٩ ـ ٢١ و ٢٣ و ٣٦ و ٤٦ ـ ٤٩ و ٧٤ ـ ٧٦ ٠

١٢ ـ طفيل : ديوان طفيل الغنوي (بيروت ـ دار الكتاب الجديد ـ تحقيق عبد القادر أحمد) ص ١٩ ٠

١٣ ـ المصدر الأسبق ص ٥٣ ٠

١٤ ـ سورة النحل ١٦ الآية ٨ ٠

١٥ ـ المفضل : المفضليات (القاهرة ـ دار المعارف ـ تحقيق شاكر وهارون) ص ٣٦٨ ق ١١٠ ٠

١٦ ـ انظر النويهي : الشعر الجاهلي (القاهرة ـ الدار القاهرة ـ الدار القومية للطباعة والنشر) ج ٢ ص ٤٨٤ ووهب رومية : الرحلة في القصيدة الجاهلية (دمشق ـ مطبوعات اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين) الطبعة الأولى ص ١٤١ ٠

١٧ ـ القرطاجي : منهاج البلغاء (بيروت ـ دار الغرب الاسـلامي ـ تحقيـق محمد الحبيب) ص ٢٧٦ والعسكـري : الصناعتين (بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ حققه د٠ مفيد قمحية) ص ٣٨ ٠

١٨ ـ انظر السيوطي : المزهر (القاهرة ـ طبع عيسي البابي الحلبي ـ تحقيق محمد أحمد جاد المولى ورفاقه ج ١ ، ص ٣٨٩ وبعد و ص ٣٩٧ ، وطه حسين : في الأدب الجاهلي (القاهرة ـ دار المعارف ـ ط ١٠) ص ٢٥ ، وشوقي ضيف: العصر الجاهلي ٠
(القاهرة ـ دار المعارف ـ ط ٢) ص ١٣١ ٠

١٩ ـ ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعـر (القاهرة ـ مكتبة نهضة مصـر ـ تحقيـق د٠ أحمد الحوفي وبدوي طبانة) ج ٣ ص ٢٠١ ٠

المصادر والمراجع :

١ ـ ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (القاهرة ـ مكتبة نهضة مصر ـ تحقيق د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة) ١٩٥٩ ـ ١٩٦٢ م .

٢ ـ امرؤ القيس : ديوان امرىء القيس (القاهرة ـ دار المعارف بمصر ـ ط ٣ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م .

٣ ـ أوس بن حجر : ديوان أوس بن حجر (بيروت ـ دار صادر ـ تحقيق د. محمد يوسف نجم) ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

٤ ـ تابط شرا : ديوان تابط شرا (بيروت ـ دار الغرب الاسلامي ـ جمع وتحقيق وشرح علي ذو الفقار شاكر) ط ١ ـ ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

٥ ـ الرافعي ؛ مصطفى صادق : تاريخ آداب العرب (بيروت ـ دار الكتاب العربي ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م .

٦ ـ رومية ؛ د. وهب : الرحلة في القصيدة الجاهلية (دمشق ـ مطبوعات اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٧٥ م .

٧ ـ السيوطي ؛ عبدالرحمن جلال الدين : المزهر في علوم اللغة وأنواعها (القاهرة ـ طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ تحقيق محمد أحمد جاد المولى وشركاه) د/ت .

٨ ـ د. ضيف ؛ شوقي العصر الجاهلي (القاهرة ـ دار المعارف بمصر) ١٩٦٥ م .

٩ ـ طرفة : ديوان طرفة بن العبد (دمشق ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية ـ تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال) ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م .

١٠ ـ طفيل الغنوي : ديوان طفيل الغنوي (بيروت ـ دار الكتاب الجديد ـ تحقيق د. عبد القادر أحمد) ١٩٦٨ م .

١١ ـ طه حسين : في الأدب الجاهلي (القاهرة ـ دار المعارف ـ ط ١٠) ١٩٦٩ م .

١٢ ـ عبيد بن الأبرص : ديوان عبيد بن الأبرص (بيروت ـ دار صادر ـ تحقيق كرم البستاني) د/ت .

١٣ ـ العسكري ؛ أبو هلال : كتاب الصناعتين (بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ تحقيق د. مفيد قميحة) ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م الطبعة الأولى .

١٤ ـ عنترة بن شداد : ديوان عنترة (دمشق ـ المكتب الاسلامي ـ تحقيق محمد سعيد مولوي) ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م .

١٥ ـ القرآن الكريم .

١٦ ـ القرطاجني ؛ أبو الحسن حازم : منهاج البلغاء وسراج الأدباء (بيروت ـ دار الغرب الاسلامي ـ تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة) ١٩٨١ م ط ٢ .

١٧ ـ القيسي ؛ نوري حمودي : وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية (العراق ـ الموصل ـ دار الكتب بجامعة الموصل) ١٩٧٤ م .

١٨ ـ المفضل الضبي : المفضليات (القاهرة ـ دار المعارف ـ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ١٩٧٦ م الطبعة الخامسة .

١٩ ـ ابن منظور : لسان العرب (بيروت ـ دار صادر) د/ت .

٢٠ ـ النابغة : ديوان النابغة الذبياني (القاهرة ـ دار المعارف بمصر ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ١٩٧٧ م.

٢١ ـ الدكتور النويهي ؛ محمد : الشعر الجاهلي ـ منهج في دراسته وتقويمه (القاهرة ـ الدار القومية للطباعة والنشر) د/ت .